

الموضوع العاشر

من يستجاب له الدعاء

عن سعد بن أبي وقاص - رضى الله تعالى عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا القرآن نزل بحزن» (بكسر الباء وفتح الحاء والزاي) وفي بعض الروايات بحُزن (بضم الحاء) وإن كان المشهور في بعض الكتابات، وفي بعض الروايات بفتح الباء والحاء.

[رواه ابن ماجه (١٣٢٧)]

بعد أن تحدثنا عن العزيمة والرغبة في حفظ القرآن الكريم، فإننى سأخذ لكم حديثاً نبوياً شريفاً فى المعنى ذاته، والحديث هو عن سعد بن أبى وقاص (رضى الله تعالى عنه).

فهذا الصحابى كان مستجاب الدعوة ليس فقط؛ لأن طعامه كان حلالاً، فهذا شىء أساسى، فقد كان مستجاب الدعوة، لا خلاف على هذا، وليس فقط لأن النبى ﷺ دعا له فقال: «اللهم اجعله مستجاب الدعوة».

من هنا نجد أن الأمر الأول: أن طعامه كان حلالاً، والأمر الثانى: أن النبى (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه) دعا له أن يكون مستجاب الدعوة، والأمر الثالث: أن الله تعالى لا يستجيب الدعاء إلا من قلب حاضر أى حاضر مع الله ﷻ.

سيدنا سعد رضي الله عنه اجتمع فيه أمران من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو: «أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة» والأمر الثاني: «اللهم أجب دعوة سعد» والأمر الثالث: وهو أن سعدًا كان قلبه حاضرًا نقيًا ليس ملتفتًا إلى غير الله .

فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ ساهٍ، وإنما يستجيب الله تعالى الدعاء من قلب حاضر، من قلب يقظ، من قلب متعلق بعرش الرحمن جل جلاله، من قلب يفرق بين الحرام وبين الحلال، من قلب فيه بصيرة، من قلب فيه خشية، هذا هو المعنى الذي أردت أن أضيفه لكم؛ لأن أسماء الصحابة رضي الله عنهم لها دلالات، وهم أولى أن تسمى شوارعنا بأسمائهم؛ لأن الله تعالى خلدهم فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩] فخلدهم الله، ورغم هذا من النادر أن تجد مدينة باسم صحابي، أو شارعًا باسم صحابي، وإنما تُسمى الشوارع بأسماء الزعماء، وأسماء القادة، وأسماء المدن والبلدان، أي: داخل المدن يسمى شارع لبنان، شارع فلسطين، وتناسى الناس أصحاب الفضل في هذه الأمة وهم أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وصحبه) .

أي إذا رأى أحد الناس شارعًا اسمه شارع "سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه" وقرأ هذا الكلام يبدأ بربط الأسماء التي لها معانٍ، الأسماء التي لها دلالات، الأسماء التي تكون فيها يقظة.

في رواية ابن ماجة: «إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا من البكاء، فإن لم تبكوا فتباكوا، - وتغنوا به فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا» .

«إن هذا القرآن نزل بحزن»، إذا كان القرآن نزل بحزن فابكوا، الإنسان عندما يقرأ القرآن فإنه يبكي من خشية الله، يتباكى من خشية الله، يتزلزل من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به، فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا .

وروى عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله تعالى» رواه الإمام ابن ماجة.

الحديث الأول: «إن هذا القرآن نزل بحزن» والحديث الثانى عن سيدنا جابر - رضى الله تعالى عنه -: «إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله تعالى» رواه ابن ماجه رحمه الله، ورضى الله تعالى عن سيدنا جابر، وعن سيدنا سعد بن أبى وقاص، وعن سيدنا أبى موسى، وعن سائر أصحاب النبى صلّى الله عليه وآله.

إن الإنسان عندما يرتل القرآن فإنه يتأثر بالقرآن، يتأثر بآيات الوعيد، وآيات الزجر، إن هذا القرآن نزل بحزن، أى: نزل وله ثقل، نزل وله شدة، نزل وفيه تكليفات شديدة .

ففى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

أى إنا عرضنا الأمانة - التى ائتمن الله عليها المكلفين من امتثال الأوامر واجتناب النواهى - على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وخفن أن لا يقمن بأدائها، وحملها الإنسان والتزم بها على ضعفه، إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه.

فالقرآن الكريم فيه أمانات، فيه تكليفات شديدة، «إن هذا القرآن نزل بحزنٍ أو يحزنٍ فإذا قرأتموه فابكوا» (من البكاء) ابك، اخضع لله، تزلزل من البكاء، والزلزلة والمعاشية، أن تعيش القرآن الكريم فيكون لك حالة من الرغبة والرغبة، مع القرآن الكريم؛ لذا فإن الله تعالى جلّ جلاله يقول: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣] .

الله تعالى هو الذى نزل أحسن الحديث، وهو القرآن العظيم، متشابهًا في حسنه وأحكامه، وعدم اختلافه، تنشى فيه القصص والأحكام، والحجج والبيانات، تقشعر من سماعه، وتضطرب جلود الذين يخافون ربهم؛ تأثرًا بما فيه من ترهيب ووعد، ثم تلين جلودهم وقلوبهم؛ استبشارًا بما فيه من وعد وترغيب، ذلك التأثير بالقرآن هداية من الله لعباده، والله يهدى بالقرآن من يشاء من عباده، ومن يضلله الله عن الإيمان بهذا القرآن؛ لكفره وعناده، فما له من هاد يهديه ويوفقه.

الإنسان عندما يقرأ يتزلزل كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

والذين كفروا بالله ورسوله لهم نار جهنم الموقدة، لا يُقضى عليهم بالموت، فيموتوا ويستريحوا، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها، وبمثل ذلك الجزاء يجزى الله كل متهاذٍ في الكفر مُصر عليه.

هذه آيات الإنسان عندما يتلوها لابد أن يتزلزل معها، لابد أن يعيش معها، «إن هذا القرآن نزل بحُزنٍ أو بحُزنٍ، فإذا قرأتموه فابكوا» القلب نفسه لابد أن ينفطر من عظمة الله ﷻ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢].

أى قل - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: لمن مُلك السموات والأرض وما فيهن؟ قل: هو الله كما تقرون بذلك وتعلمونه، فاعبدوه وحده، كتب الله على نفسه الرحمة فلا يعجل على عباده بالعقوبة ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذى لا شك فيه للحساب والجزاء، الذين أشركوا بالله أهلكوا أنفسهم، فهم لا يوحدون الله، ولا يصدقون بوعد ووعيده، ولا يقرون بنبوته محمد ﷺ.

يقول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٣ ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ ١٤ ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ١٥ ﴿قُلْ إِنَّا نَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ١٦ ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ١٧ ﴿هُم مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ١٨ ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ ١٩ ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ٢٠ ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ٢١ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ ٢٢ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَوْلَاوُا الْأَلْبَابِ﴾ ٢٣ ﴿[الزمر: ١٣-١٨].

فإن هذا القرآن نزل بحُزنٍ أو بحُزنٍ فيه ثقل، فيه شدة، فيه تأثير، وإن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)، كان عندما يتنزل عليه القرآن العظيم، فإن حاله كان يتبدل تمامًا، يتغير كل التغيير، ويستشعر الصحابة أن شيئًا عظيمًا جليلاً يحدث الآن بواسطة جبريل عليه السلام بأجنحته الستائة ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ١ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ٢ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ ٣ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ ٤ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ٥ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ٦ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ٧ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ٨ ﴿[النجم: ٤ - ١١].

فلنستشعر جبريل عليه السلام بهذه القوة، بهذه الشدة، وهو ينزل بكامله على قلب الحبيب ﷺ، فكيف كان قلبه؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ١ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ٢ ﴿[المزمل: ٥، ٦].

إن هذا القرآن نزل بحُزنٍ أو بحُزنٍ بشدة بقوة على قلب الحبيب ﷺ؛ لأجل هذا عندما تقبل على حفظ القرآن الكريم أيها الأخ الكريم، وأيتها الأخت الكريمة لا بد أن يكون القلب كله منشغلاً بالقرآن، مشدوداً بالقرآن، ولا ينشغل بشيء غير الحفظ.

القرآن يحتاج إلى صدر منشرح، يحاول أن يعيش حالة البكاء بما يسمى التباكى، من كلامك يا حبيب الله ﷺ «الذى إذا رأيتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله»، وفي استشعارك للقرآن بخشوع قلب وحركة فؤاد، وانفعال مع القرآن، ويحيش القرآن في القلب، وتأثر القلب بأنوار القرآن، هذه حالة ينتقل فيها الإنسان من البكاء إلى التباكى، إذا بكيت فهذه حالة مهمة لطيفة أساسية عندما تمر عليك آيات ستعصر وتشد قلبك .

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ۚ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۚ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٧].

الذى يقرأ هذه الآيات في سورة إبراهيم ولا يتزلزل، ولا يفعل، ولا يبكى، ولا يتباكى، فمعنى ذلك أن القرآن الكريم لم يدخل إلى قلبه، وإنما مر إلى حنجرتة، مر إلى الحنجرة وتوقف، ولكنه لم ينزل من الحنجرة إلى أسفل كما قال النبي العظيم ﷺ .

اللهم إن رحمتك خير من عملي، وعظمتك أفضل من مسألتى، فبرحمتك يا إلهي، بكرمك، وعزتك، وارتفاع مكانتك، وجلال وجهك، وقدرتك، وعظمتك وسعة فضلك، أعطني خير الدنيا والآخرة في هذا الشهر المكرم، وارزقني فيه شكرًا، واستعملني فيه بطاعتك حتى أكون يوم فاقتي غنيًا في لحدى

إذا أُقررتُ فيه أَمنا من هول المَطلع، وأكون قبل موتى مغبوطاً
في دار الدنيا بسعة الرزق وصلاح الشأن، اللهم بك أرجو
بلوغ رضاك بعملى، وأنت يا إلهى من كل شىء حسبى فأنت
يا إلهى لا شريك لك، وأنت يا إلهى ملك رءوف، فلك
أسلمت وجهى، ولك الحمد والشكر على ذلك، اللهم أنت
ثقتى ورجائى، وإليك رغبتى ودعائى، وأنت بحاجتى عالم
غير مُعلم، وأسألك يا الله أن تجعلنى فى هذا اليوم من عُتقائك
من النار، وأن تجعل اسمى فى أسماء الأبرار والأخيار، إنك
على كل شىء قدير، وذلك عليك سهل يسير يا أرحم
الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.